ملتقى الابعاد الوطنية والإصلاحية في أدب محمد الأخضر السائحي

أيام 29/28/27 ديسمبر 2022

وزارة الثقافة والفنون،

محافظة المهرجان الثقافي الدولي للكتاب والأدب والشعر

عنوان المداخلة:" البعد الديني والوطني في شعر السائحي"

محمد الأخضر السّائحي: (1336هـ-1425 هـ/ 1918م-2005م)

محمد الأخضر السّائحي بن الحاج محمد العلمي الأخضري من قبيلة أولاد سيدي محمد السّائح، المولود بقرية العاليّة الحجيرة ولاية وركلة جنوب الجزائر.

قضى حياته في وطنه الجزائر وتونس وزار عدّة دوّل عربيّة وغربيّة.

لقد كان والده معروفا بحكمته ونبوغه وحسن تصرّفه إذ كان مضرب المثل في التّدبر، لذلك اهتمّ بتربية ابنه محمّد الأخضر بعد وفاة والدته، فعمل على تحفيظه القرآن كاملا وهو بين سن التّاسعة والعاشرة، كما أخذ عنه مبادئ علوم اللّغة والشّريعة. بعد ذلك أرسله إلى مدينة "الكرارة" ولاية غرداية عند صديقه الحميم الشّيخ بيّوض، فأدخله هناك "مدرسة الحياة" التي هي في الواقع مدرسة دولة، حيث يوجد بها طلاب من ليبيا وتونس وسلطنة عُمان ومن أنحاء الجزائر، فأخذ فيها علوم القرآن واللّغة العربيّة من نحو وصرف وبلاغة وأدب والتّربيّة والفقه...

وقد أُعجب السّائحي بالجوّ الجديد في هذه المدرسة، كما أُعجب بالمشايخ أمثال الشّيخ بيّوض والشّيخ عدّون وهنا بدأت قريحته تتفتّق عندما وجد ما يروقه من مختلف علوم العصر.

وفي هذا الجوّ الثّقافي بدأ يكتب ويبرز من خلال الجرائد التي كانت تنشر له ولغيره، وقد كان أوّل نتاج له في الفاتح من نوفمبر1934م بعد سنة من التحاقه بالمدرسة وهو ابن ستة عشر عاما قصيدة "من بني قصري رجالا" نُشرت في جريدة "الشّباب"، وبعد شهر واحد نَشرت له الجريدة نفسها قصيدة طويلة من خمسين بيتا بعنوان "لما العلم للضعيف سلاح".

وبعد أن قضى سنتين بالكرارة في جوّ علميّ ممتاز، توجّه إلى تونس سنة 1935م والتحق بجامع الزّيتونة وبقي هناك حتى سنة 1939م، إذ رجع إلى موطنه تكّرت مُطَارِدًا من سلطات الاستعمار الفرنسي فزُجّ به في السجن نظرا لنشاطاته المعاديّة والمناهضة للاحتلال.

في أثناء الحرب العالميّة الثّانية حاول الخروج من المنطقة لكنّ السّلطات الاستعماريّة أرجعته وأجبرته على البقاء.

سعى مع جماعة من شباب بلدته لتأسيس جمعيّة "الأمل" تحت ستار التّمثيل، كما أسّس فوج كشافة، ثم أسّس مدرسة الفلاح، بالإضافة إلى تأسيس مدرسة النّجاح بقرية تماسين.

بعد ذلك استطاع أن يشقّ طريقه إلى الجزائر العاصمة عام 1952م، فعمل منتجا بالإذاعة وأستاذا في ثانويّة بالقبة (حسيبة بن بوعلي حاليّا)، ومدرّسا بمدرسة السّعادة بحي بلكور (بلوزداد حاليّا)، ثم تفرّغ للإنتاج الإذاعي إلى أن استرجعت الجزائر سيّادتها، فجمع من جديد بين التّعليم والعمل الإذاعي إلى أن تقاعد في نوفمبر 1980م.

لكنّ السّائحي تابع نشاطه الإذاعي وبخاصّة برنامجه اليومي الخفيف المرح "ألوان" الذي كان يشدّ المستمعين من منتصف النّهار إلى الواحدة ظهرا.

وقد كان السّائحي خفيف الرّوح وصاحب نكتة وحاضر البديهة، وقد التقيت به شخصيّا مرّات عديدة في العاصمة وقسنطينة على هامش الملتقيّات والمهرجانات الأدبيّة والفكريّة، فكان مثالا للأب والأخ والصّديق والنّاقد الحصيف، ومن بين ما أذكره أنّه قصّ علينا مرّة في العاصمة، بحضور الأستاذ عبد الرّزاق قسوم رئيس جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين والأستاذ محمّد الهادي الحسني ومجموعة من الأساتذة، على هامش ملتقى تربوي للجنة الوطنيّة للعلوم الإسلاميّة في مطلع التسعينيّات من القرن العشرين: أنّه رأى في منامه أنّ الرئيس التّونسي الحبيب بورقيبة قد سلّمه جائزة أولى لأنّه كان الأوّل في المغرب العربي في لعبة الدومين، فقال واستغربت كثيرا من هذه الرؤيا، لكن بعد مدّة شاركت في مهرجان الشّعر العربي الحادي عشر الذي أُقيم بتونس في مارس 1973م، وفزت بالميداليّة الذّهبيّة وقد سلّمها لي الرئيس التّونسي الحبيب بورقيبة ، وكان السّائحي عضو اتّحاد الكُتّاب الجزائريّين منذ تأسيسه.

إنّ محمّد الأخضر السّائحي أو السّائحي الكبير كما يدعوه بعض الدّارسين تمييزا له عن ابن عمّه (عبد القادر السّائحي) قد بدأ نظم الشّعر مبكّرا كما مرّ معنا وهو طالب في مدرسة الحياة بالكَرارة؛ إذ كان ينشر في مجلّة الشّباب في بداية الثلاثينيّات من القرن الماضي، كما أنّه نشر في المجلّات والصحف التّونسيّة والجزائريّة، وقد صدرت له مجموعة من الدّواوين الشّعريّة هي: " همسات وصرخات" دار المطبوعات الجزائريّة 1967م، "جمر ورماد" الدّار العربيّة للكتاب تونس 1980م، ثم صدر بالجزائر عام 1981م ، "أناشيد النّصر" الجزائر 1983م، إسلاميّات الجزائر 1984م، "بقايا وأوشال" الجزائر 1987م، "الرّاعي وحكاية الثّورة" الجزائر 1988م، و "ديوان للأطفال" دار الكتب الجزائر 1983م.

ما يمكن أن نلاحظه على شعره الذي امتدّ إلى أكثر من ستين(60) سنة من عمره، أنّه يتمحور حول القضايا الوطنيّة والمناسبات المختلفة الدّينيّة والاجتماعيّة، والوصف، والرّثاء وتمجيد ذكريات العظماء من الرّجال أمثال الأمير عبد القادر، وابن باديس والإبراهيمي والعقاد وغيرهم.

كما نجد له شعرا في المداعبات والفكاهة، بالإضافة إلى شعر موجّه للأطفال، ومَن منّا لا يذكر روائعه مثل: "الحديقة السّاحرة"، و"نلعب"، و"شرطي المرور"، و"وداع المدرسة" وغيرها من القصائد الخالدة التي كانت تطربنا صغارا وتهزّنا كبارًا.

أمّا لغته الشّعريّة فهي رقيقة شفّافة طيّعة بحسن اختيّارها وتوظيفها توظيفا ليّنا ومؤثّرا، وعباراته تتّسم بالتّدفق والعذوبة، في حين أنّ صوره الشّعريّة فهي ذات دلالة كثيفة.

وقد قال فيه ابن عمّه السّائحي الصغير: "صفة السّائحي الأساسيّة هي الشّاعر، لكنّه امتاز بثلاثة أشياء أخرى: أنّه استطاع أن يجعل الشّعر محبّبا للأطفال والكبار، ثانيّا أنّه يُعتبر أحد الذين رسّخوا الكلمة التي تحبّب النكتة والسّخريّة من الجزائريّين، أما الثّالثة فهي أنّه الإنسان بأتمّ الكلمة لا تكبر ولا يعادي ولا يخاصم، يريد فقط أن يعيش بكرامة ولا يغضب إلا إذا مُسّت كرامته كشخص أو كرامة الوطن الجزائر.

ولهذا كان السّائحي يُوصف بـ: "شاعر القطرين" الجزائر وتونس وقد ذاع صيته في العالم العربي والإسلامي وكتب عنه الأدباء والنّقاد، كما خلّد اسم الجزائر مقرونا باسمه في كلّ البلدان التي زارها فرسم صورة الجزائر المجاهدة الأبيّة من خلال قصائده ومداخلاته. وقد اختيرت بعض قصائده لتمثيل الشّعر العربي في عمل تولّت "المنظمة العالميّة للثقافة والعلوم –اليونسكو–" ترجمته إلى معظم لغات العالم.

نماذج من شعره: **_ رسالة شيخ فلاح إلى ابنه الطّالب**

بني أنا الآن في ضيعة

على سورها اسم أخيك الشّهيد

وما زلت أعمل طول النّهار

ولكنّني اليوم فيها سعيد

تغيّر في نظري كلّ شيء

كأنّي خلقت هنا من جديد

أعانق أشجارها من سروري

وأهفو لأغصانها إذ تميد

ألم تعد الآن ملكي؟

وملك أخي؟ ملك شعبي المجيد

سنحرثها الآن شبرا فشبرا

ونصنع في أرضنا ما نريد

فسِر في طريقك إنّا هنا

لدى نعمة مالها من مزيد

ستلقاك أمّك بعد النّجاح

وتنسى أساها البعيد... البعيد

إذا نابنا قلق عابر

ضحكنا وقلنا شعور بليد

وظلنّا بضيعتنا قائمين

أليس اسمها اسم أخيك الشّهيد؟

- **أشياء أكرهها**

أكره ما أكره في "رمضان"

دخول مكتبي بلا "دخان"

وجلسة طويلة في الظُهر

ويقظة بعد طلوع الفجر

وواعظ يُعيد للأقوام

ما قيل في الصّوم من ألف عام

وكاذب يشكو عناء الصّوم

ولم يصم في الشّهر أي يوم

وصائم (ثار فسبّ الدّنيا)

وراح يؤذي النّاس أجمعينا

– شباب القرارة (من الخفيف)

إيه أرض النّبوغ والعبقريّات

ومأوى العلوم والآداب

نهرك الضّاحك الضّفاف وكم ذا

فيه للصبّ من أمان عذاب.

الأستاذ: رابح دوب

المصادر:

1– عبد القادر موهوبي السّائحي الإدريسي الحسني: معجم الصّفوة – تين وزيتون للنّشر والتّوزيع–الجزائر–2012

2– محمد الأخضر عبد القادر السّائحي: روحي لكم–المؤسّسة الوطنية للكتاب –الجزائر 1986.

3– عبد المالك مرتاض: معجم الشّعراء الجزائريين في القرن العشرين–دار هومة–الجزائر.